ASJP
Algerian Scientific Journal Platform
مجلة التواصلية
ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537
HTTPS://WWW.ASJP.CERIST.DZ/EN/PRESENTATIONREVUE/294

المجلد:07/ العدد: 19(2021) ص11/23

مواقع العلوم وأثرها في تبيان المعاني وتحرير الفهوم علم النحو نموذجًا،

The arabic sciences standing and their role in clarifying meanings and editing comprehension. Syntax as a sample study.

أ. خالد معصي *

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة السلطان مولاي سليمان (المغرب)

Maassi.khalid@gmail.com

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2021/01/09 تاريخ القبول: 2021/05/03 **الكلمات المفتاحية:** ✓ النحو: ✓ المعاني: ✓ البناء: ✓ التحرير: ✓ الفهوم:	نسعى من خلال هذا المقال إلى التعريف بمكانة علم النحو ومركزيته في تفكير علماء العربية عموما، وفي تفكير علماء النحو خصوصا، كما نحاول في السياق نفسه إبراز أثر هذا العلم في تبيان معاني الخطاب وبنائها، وتحرير فهوم المتلقين وتوجيهها، ونحن إذ نقتصر في تسليط الضوء، على علم النحو فقط دون غيره من العلوم الأخرى، وتخصيص هذا المقال له، فليس ذلك من باب التفاضل بين العلوم، ولا بناءً على نظرة معيارية تصنيفية أو نزعة انتقائية ذاتية؛ فعلوم العربية جميعُها تستوي عندنا مبدئيا، في المنزلة والفضل بالنظر إلى قيمتها العلمية والإجرائية، واعتبارا لشرف منابعها ومواردها وغاياتها، ولا عبرة في تقديم بعضها على بعض إلا لدواع وظيفية أو منهجية أو تعليمية.
Article info	*Abstract :*
Received 2021/01/09 *Accepted* 2021/05/03 **Keywords:** ✓ *Syntax:* ✓ *Meaning:* ✓ *Construction:* ✓ *Editing:* ✓ *Comprehension*	*We endeavor in this article to define the status and the importance of syntax in the thinking of Arab scientists in general, and in the thinking of Grammarians in particular; we also try in the same context to highlight the effect of this science in revealing the meanings and the structures of discourse, editing and guiding the recipients' comprehension. Confining ourselves to the study of syntax doesn't mean we prefer it to other sciences, but we consider all Arabic sciences equal in status and favor thanks to their scientific value and honorable resources; therefore, our choice of this science is related to functional, methodological or educational reasons.*

* المؤلف المرسل

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

1. مقدمة:

ارتبطت جهود العلماء العرب والمسلمين في مسألة التقعيد لعلوم العربية والتأصيل لها في مجملها، بنزول الوحي. وكان الدافع إلى هذا التقعيد موجَّها من جهتين؛ من جهة الاعتقاد الراسخ بوجوب المشاركة في خدمة الرسالة السماوية، ونشر الدين الحنيف، وهي مشاركة تدخل في باب التكليف، وتستند إلى نظرة استشرافية واعية بقيمة الرهان وحجمه، وبخصوصية المرحلة وما أعقبها من مراحلَ ذاتِ صلة بأحوال الناس في معاشهم، وكذا من جهة الوعي بضرورة التأسيس لحضارة عربية إسلامية مستقلة بكيانها، وفكرها، ومعارفها غيرِ تابعة أو مقلِّدة.

ولذلك اعتبر أغلب علماء النصف الأول من القرن الأول الهجري أنّ تحقيق النجاح في تأدية الواجب تجاه الوحي الإلهي، وكسب رهان الاستقلال على المستويين الفكري والمعرفي لن يتأتى إلا ببذل الجهد، واستغراق الوُسع، واستنفاذ الأعمار في سبيل بناء علوم، وإنشاء صناعات، وابتكار فنون تُقضى بها الحاجات وتبلغ بها الغايات من الجهتين، وتشهد على عبقرية الإنسان العربي، وتُظهر للأمم الأخرى خصوبة الأرض التي بنى عليها العلماء العرب والمسلمون صرح علومهم وحضارتهم من هذه الجهة؛ فما راكمه الإنسان العربي شعرا ونثرا في مرحلة ما قبل الإسلام مضافا إلى الوحي الإلهي، وكلام العرب الخُلَّص الذين يعتد بفصاحتهم من أهل الوبر والمدر، كان كافيا لبزوغ فجر جديد على الأمة العربية الإسلامية متمثلا في استنباط علوم وتقعيدها وفق أدلة، وأصولٍ، وضوابطَ لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، أصولٌ وضوابطُ مستمدةٌ من بنية العقل العربي ومن خصوصية تكوينه، ومنسجمة مع عقيدته وأسلوب حياته وطموحاته.

ومن أَجَلِّ العلوم والصناعات، التي خصّها كثير من العلماء بالعناية والرعاية نظرا لمركزيتها وموقعها في منظومة البناء والتأسيس، نذكر علم النحو؛ وليس يخفى على من كان حظه من الاطلاع يسيرا قليلا في هذا المضمار، ارتباط هذا العلم بسياقات تأليفية معلومة، وشروط تاريخية محددة، وبدوافعَ وحاجاتٍ ملحةٍ كانت ذريعة لاستنباطه وتقعيده.

وإذ نقتصر في تسليط الضوء على هذا العلم فقط دون غيره من العلوم الأخرى، وتخصيص هذا المقال له، فليس ذلك من باب التفاضل بين العلوم، ولا بناءً على نظرة معيارية تصنيفية أو نزعةٍ انتقائية ذاتية؛ فعلوم العربية[1] جميعُها تستوي عندنا، في المنزلة والفضل بالنظر إلى قيمتها العلمية والإجرائية، واعتبارا لشرف منابعها ومواردها وغاياتها، ولا عبرة في تقديم بعضها على بعض إلا لدواع وظيفية أو منهجية أو تعليمية.

[1] يقول الزمخشري: "اعلم أن أصناف العلوم الأدبية ترتقي إلى اثني عشر صنفا؛ الأول: علم اللغة، والثاني: علم الأبنية، والثالث: علم الاشتقاق، والرابع: علم الإعراب، والخامس: علم المعاني، والسادس: علم البيان، والسابع: علم العروض، والثامن: علم القوافي، والتاسع: إنشاء النثر، والعاشر: قرض الشعر، والحادي عشر: علم الكتابة، والثاني عشر: المحاضرات". (في علم العروض، تحقيق: فخر الدين قباوة، مكتبة المعارف، بيروت، ط2، 1989م، ص15-16).

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ولذلك سنعمد في هذا المقال، إلى عرض بعض الشواهد والآراء والأقوال الصادرة عن بعض العلماء الأعلام المعتبَرين والمتخصصين في هذا العلم، وذلك على مقتضى اعتباره وسيلةً بيانية وموجّهةً، ومنطلقا بنائيا ضابطا، له موقع مركزي في مجموع الجهود ذات الطابع التأسيسي. وسنحاول مساءلةَ هذه الشواهد والآراء ومناقشتَها في حدود المتاح اطّلاعا واستيعابا، وبشكل يسمح بالنفاذِ إلى أعماق ما فيها من المعاني المضمرات، والإشارات الخفيات، وبرفعِ الحجب عنها، فقراءتها قراءة فاحصة تحترم أولا؛ نظرة هؤلاء العلماء الأجلاء تجاه هذا العلم، وتتطلع ثانيا؛ إلى البحث عن مظاهر الجِدة والوجاهة والمقبولية في عرضهم لمزاياه ومكانته في بنية العقل العربي عموما، وفي تفكير بعض علماء العربية على وجه الخصوص.

إذن، فإلى أي حد يمكن اعتبار النحو وسيلة لتبيان المعاني وتوجيهها، ومنطلقا لتحرير الفهوم وتحديدها انطلاقا من منظور بعض علماء العربية من أهل هذه الصناعة.

2. النحو وأثره في تبيان المعاني وبنائها، وتحرير الفهوم وتوجيهها.

إنّ الحديثَ عن علاقة النحو بالمعنى والفهم ليس يقتصر البتة، على بعض الجهود المتأخرة في عصرنا الحالي لبعض الباحثين الجادين المجتهدين، بل إنّ له امتداداتٍ وأصداءَ ضاربةً في عمق التاريخ المتصل بنشأة علم النحو ومراحل تطوره واستوائه في علاقته بالخطاب الشرعي تحديدا، مثله في ذلك، مثل أغلب علوم العربية التي ارتبطت من حيثُ النشأةُ والتقعيدُ بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولم يكن حرص العلماء والأئمة وتأكيدهم على أسبقية هذا العلم في التحصيل والضبط والإحاطة إلا دليلا على مركزيته فيما يتعلق باستنباط الأحكام، وتبيان المعاني وبنائها في سياق فسر السور والآيات، وشرح الحديث النبوي الشريف بما يسهم في تحرير فهوم الناس من التداخل والمعاضلة واللَّبْس، وتوجيه المعنى وفق قرائنَ وضوابطَ معلومةٍ إلى ما فيه صلاح العباد وفلاحُهم في المعاش والمعاد.

2.1. منظور عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ).

فالنحو أو علم الإعراب وسيلةٌ لفتح المستغلق، وتبيين المبهم، وتقييد المطلق، وأداةٌ فاعلة في سيرورة الإبانة عن المعاني وتحديدها، وتوجيه الفهوم وتحريرها بما يتناسب ومقصدية الباث وما يقتضيه المقام، فـ "**قَدْ عُلِمَ أَنّ الْأَلْفاظَ مُغْلَقَةٌ عَلى مَعانِيها حَتّى يَكونَ الْإِعْرابُ [النحو] هُوَ الَّذي يَفْتَحُها، وَأَنّ الْأَغْراضَ كامِنَةٌ فيها حَتّى يَكونَ هُوَ الْمُسْتَخْرِجَ لَها، وَأَنَّهُ الْمِعْيارُ الَّذي لَا يُتَبَيَّنُ نُقْصانُ كَلامٍ وَرُجْحانُهُ حَتّى يُعْرَضَ عَلَيْه، وَالْمِقْياسُ الّذي لَا يُعْرَفُ صَحيحٌ مِنْ سَقيمٍ حَتّى يُرْجَعَ إِلَيْهِ**"[1]، فهو إذن الأداة النموذجية التي يتوسل بها محلل الخطاب لفتح مغاليق النصوص والخطابات

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمود شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، ط3، 1992، ص28.

Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وتأويلها، واستخراج ما يتغوّر من أغراضها، وتبيان ما يستبهم من مقاصدها، وذلك حين يتعصى عليه بلوغ المعاني الخفية ورفع أركانها وبنيانها، ولا يكون ذلك إلا عبر بوابة الألفاظ متعلقةً بعضها ببعض، والتي تشكل وفق نسق تأليفي محدَّدٍ، كليةً لغوية ونسيجا دلاليًا مغلقا، لا يمكن اختراقه إلا بواسطة النحو متضافرا مع بعض البنى النصية الأخرى التي تقتضيها عملية الإبانة والتحرير، ومتطالبا مع بعض الموازيات الخارجية والمعينات السياقية التي يستدعيها المقام.

ففي الفتح، من هذه الجهة، التي يعرض من خلالها الجرجاني رأيَه، بيانٌ لحلاوة الظفر بالمعنى، وإحكامُ السيطرة عليه، والإعراب عما يتوارى خلف الألفاظ من فرائدَ، وما تتستّر عليه من نكتٍ وفوائدَ لا تنكشف إلا تحت أشعة النحو وفاعليته البنائية، واستحضارا **لطاقته التأويلية**[1]، مع شيء من النباهة والطبع، وخلوص النية، وصفاء النبع، وكذلك ففي استخراج الأغراض والمقاصد المتصلة بصانع الخطاب، تحريرٌ لفهم المتلقي من كل ما يُلَبِّسُ عليه، ويحُول بينه وبين فهم الخطاب، فتأويله ونقده بموضوعية، من غيرِ تعسفٍ أو تأوُّل.

هكذا تتضح من خلال كلام الجرجاني، الوظيفة البيانية للنحو، والبعد التحريري له في علاقته بالمعاني والفهوم، ناهيك عن وظيفته التقويمية التعليمية المستمدة من كونه معيارا ومرجعا للحكم على القول، والتمييز فيه بين سليمه وفاسده، وبين راجحه وناقصه، وبين فصيحه وأفصحه. وهذه كلها وظائف وفضائل لا تجدها مجتمعة إلا في علم النحو، وعلة ذلك أن "**شَرَفَ الْعِلْمِ إمّا أَنْ يَكونَ بِشَرَفِ الْمَعْلومِ كَعِلْمِ التَّوْحيدِ لَا شَكَّ أَنَّهُ أَشْرَفُ الْعُلومِ، لِأَنّ مَعْلومَهُ أَجَلُّ الْمَعْلوماتِ وَأَشْرَفُها. وَإِمّا أَنْ يَكونَ لِلْفَوائِدِ الْمُسْتَفادَةِ بِهِ عاجِلاً أَوْ آجِلاً كَالْفِقْهِ وَالطِّبِ. وَإِمّا أَنْ يَكونَ بِالْجَمالِ الّذي يسْتشعرُ بِهِ كَعِلْمِ الْأَخْلاقِ. وَإِمّا أَنْ يَكونَ بِالرِّياضَةِ الّتي يَسْتَتْبِعُها هُوَ كَما فِي الْعُلومِ الرِّياضِيَّةِ وَبِها سُمّيتْ..وَأَنْتَ إذا اعْتَبَرْتَ صِناعَةَ النَّحْوِ وَجَدْتَها مُسْتَجْمِعَةً لِهَذِهِ الْفَضائِلِ كُلِّها**"[2]، وليس ينكر ذلك، كما يقول الجرجاني " **إلّا مَنْ يُنْكِرُ حِسَّهُ، وَإلّا مَنْ غالَطَ في الْحَقائِقِ نَفْسَهُ**"[3].

2.2. منظور جار الله الزمخشري (ت 538هـ).

وإذا كان قول الجرجاني في ظاهره يفيد العموم فيما يتعلق بالخطاب، ولا يقصر أثر النحو على نوع محدد من أنواعه، فإن الزمخشري، يحيل على ما للنحو من أثر في الإبانة عن المعنى وتحرير الفهوم وتوجيهها إلى حيث الإصابة والبلوغ مقرونا بالخطاب القرآني، إذ يقول:"**هَذا وَإِنّ الْإِعْرابَ أَجْدَى مِنْ تَفاريقِ الْعَصا، وَآثارُهُ الْحَسَنَةُ عَديدةُ الْحَصَى، وَمَنْ**

[1] محمد بازي، صناعة الخطاب؛ الأنساق العميقة للتأويلية العربية، كنوز المعرفة، ط1، 2015، ص59.

[2] أبو سعيد علي بن مسعود الفرخان، المستوفى، ص30.

[3] دلائل الإعجاز، ص28.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

لَمْ يَتّقِ اللهَ فِي تَنْزِيلِهِ، فاجْتَرَأَ عَلَى تَعاطِي تَأْوِيلِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُعْرِبٍ، رَكِبَ عَمْيَاءَ وَخَبَطَ خَبْطَ عَشْوَاءَ، وَقَالَ ما هُوَ تَقَوُّلٌ وَافْتِرَاءٌ وَهُرَاءٌ، وَكَلامُ اللهِ مِنْهُ بَرَاءٌ، وَهُوَ الْمِرْقَاةُ الْمَنْصَوبَةُ إِلى عِلْمِ الْبَيانِ، وَالْمُطَّلِعُ عَلَى نُكَتِ نَظْمِ الْقُرْآنِ، الْكافِلُ بِإِبْرازِ مَحاسِنِهِ الْمُوَكَّلُ بِإِثَارَةِ مَعادِنِهِ, فَالصَّادُّ عَنْهُ كَالسَّادِّ لِطُرُقِ الْخَيْرِ كَيْلا تُسْلَكُ، وَالْمُرِيدِ لِمَوارِدِهِ أَنْ تُعاقَ وَتُتْرَكَ"[1]، فحديث الزمخشري عن علم الإعراب، وعن آثاره الحسنة الكثيرة بما هو معادل دلالي لعلم النحو، حديث مؤطر بخلفية الاعتراض والطعن على كل من سولت له نفسه أن يتعاطى تأويل كتاب الله وفسره من غير أن يتسلح بهذا العلم، الذي يضمن لكل مجتهد في هذا المضمار، نصيبا من التوفيق، ويجانب بينه وبين التقول والتمحل في كتاب الله، والافتراء على كلامه، والافتئات على حديث نبيه من باب التأويل المفتقد للشروط التي تواضع عليها أهل هذه الصناعة. وتبرز أهمية الإعراب وأثره في بيان المعنى عند الزمخشري في كونه:

- الدرجةَ بل الجسرَ الممتدَ إلى كل ما يكشف قناع المعنى ويرفع منارته، وإلى كل ما يعين على تبيين مسالك الظفر به وتقريبه إلى فهوم المتلقين متحررا من سلطة المعارف السابقة، وعائق التجربة الأولى؛
- آليةَ رصدٍ وتنقيبٍ عن اللطائف والنكت التي يكون بها شيء من إعجاز القرآن الكريم لغة وأسلوبا وتركيبا؛
- المدخلَ اللغويَ الأمثلَ لضمان تحصيل نتائجَ مبهرةٍ فيما يتعلق بإبراز كل ما يكون به الخطاب القرآني معجزا متفردا، وذلك بالنظر إلى قوة الإعراب البيانية، وفاعليته البنائية.

وإذا كان اختلاف المذهب والاعتقاد، والخلاف في بعض الآراء والمسائل والقضايا الدينية والبلاغية قد فرقا بين الجرجاني والزمخشري، فإنّ الدفاع عن النحو، وبيان فضله ومركزيته قد جمع بينهما على وجه التداول والتراكم؛ فكلاهما أنزلا الصادَّ عن علم النحو، والمنكرَ لفضله منزلةَ الصادِّ عن طريق الهداية، والساعي إلى إخراس صوت الحق في ضمير الأمة.

2.3. منظور ابن السراج الشنتريني (ت 550هـ).

فلما كان مدار الشرف كلِّه في العربية، على دقائق معانيها وارتباط الأحوال بأقدار مبانيها، وكان لا يتأتى المراد منها في سياق التعبير عن الأغراض، أو توجيه الفهوم والتصورات إلا بتجنب كل ما يعطل عملية الفهم والإفهام، ويلغي الحدود والفروق بين المعاني، ويحاصر الفهوم في دوائر اللَّبس والإبهام. فلما كان كذلك حق للإعراب أن يكون هو المجنِّبَ لوقوع ذلك، باعتباره بابا من أبواب علم النحو، ووجها من وجوهه المعتبرة، "**وهو في اللغة يعني**

[1] الزمخشري، المفصل في علم العربية، تحقيق: الدكتور فخر صالح قدارة، دار عمان، ط1، 2004م، ص31.

Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الإيضاح، أي إيضاح معنى الكلام وإبانته"[1]، وهذه الإبانة تقتضي أن "**يتكلم الإنسان بطريقة العرب في كلامهم، وذلك بأن يبين وفقا لقواعد لسانهم**"[2]، وأما في اصطلاح النحويين، فالإعراب: "**تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظا وتقديرا**"[3]، وهو عند جلال الدين السيوطي، "**الفارقُ بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما مُيِّزَ فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد**"[4]، وهو من منظور الشنتريني، ميزان العربية من جهة مبانيها ومعانيها؛ ذلك "**لِأَنّ الْإِعْرابَ إنّما وُضِعَ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْمَعانِي...فَلَوْ ذَهَبَ الْإِعْرابُ لَاخْتَلَطَتِ الْمَعانِي، وَلَمْ يَتَمَيّزْ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ، وَتَعَذَّرَ عَلَى الْمُخاطَبِ فَهْمَ ما أُرِيدَ مِنْهُ؛ فَوَجَبَ لِذَلِكَ تَعْلِيمُ هَذا الْعِلْمِ إِذْ هُوَ أَوْكَدُ أَسْبابِ الْفَهْمِ، فَاعْرِفْ ذَلِكَ وَلَا تَحِدْ عَنْهُ**"[5].

هكذا تتضح أهمية علم الإعراب من منظور ابن السراج الشنتريني، في استقلال المعاني عن بعضها ببعض، وعدم تداخلها في الأذهان والفهوم، الشيء الذي يسمح ببناء خطاب متماسك بليغ، وتقديم قراءات ومقاربات واعية تستجيب لشروط تحليل الخطاب الموضوعية، كما تتضح كذلك وظيفة هذا العلم التحريرية والتوجيهية المتعلقة بفهم الخطاب؛ فمتى كان المخاطِب معربا للكلام، متعلقا بعلم الإعراب بسبب ونسب حرر فهم المخاطَب من كل التباس أو سوء فهم، ووجهه إلى حيث القصدُ والغاية، "**وكان قد أعفى المستمِعَ من كدِّ التكلف، وأراحَ قارئَ الكتاب من علاج التّفهم**"[6]. ومما يؤكد أن الشنتريني يقصد بكلامه علمَ الإعراب لا الإعرابَ المقابل للبناء، في اصطلاح النحويين حثه على تعليم هذا العلم والتنويه بوظيفته المركزية في عملية الفهم والإفهام، وذلك ظاهر من خلال قوله :"**فوجب لذلك تعليم هذا العلم إذ هو أوكد أسباب الفهم، فاعرف ذلك ولا تحد عنه**".

فلعلم النحو مزيةٌ لا يُجهل قدرها، وفضيلة لا يُسر بدرها، وله منافعُ كثيرةٌ وفوائدُ جمّةٌ على منتجي الخطاب وعلى متلقيه ومحلليه جميعا، وذلك باستحضار وظيفته الإفهامية وكفاءته البيانية، وهذا ما أكده الشنتريني، وما يزال يؤكده مع مزيد بيان وتفصيل بقوله: "**وَمِنْ فَضائِلِ هَذَا الْعِلْمِ [علم النحو] حُسْنُ الْفَهْمِ وَالْإِفْهامِ، وَبُلوغُ الْغَرَضِ بِالْكَلامِ. فَرُبَّما يَتَكَلَّمُ**

---

[1] أبو علي النحوي ، المسائل العسكريات في النحو العربي، دراسة وتحقيق: علي جابر المنصوري، ص53.

[2] نفسه.

[3] الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1955م، ج1، ص19.

[4] جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق: محمد إبراهيم، ومحمد جاد المولى بك، وعلي البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط2011، ج1، ص262.

[5] الشنتريني ابن السراج، تنبيه الألباب على فضائل الإعراب، تح: عبد الفتاح الحموز، دار عمار، ط1، 1995م، ص21-22.

[6] الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، ج2، ص8.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

مُتَكَلِّمٌ بِخِلافِ ما يُرِيدُ، فَأَيُّ نَقِيصَةٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُرِيدَ الْإِنْسانُ أَنْ يُعَبِّرَ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ، فَلا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلا بِتَحْرِيفِ الْكَلامِ وَتَغْيِيرِهِ"[1]. قد يعترض معترض فلا يرى من باب الإنكار، في قول الشنتريني ما يؤكد تلك الوظيفة الإفهامية والقوة البيانية اللتين يمتاز بهما النحو ويرتكز عليهما، ويختزل كلامه في الإشارة إلى البعد التقويمي لهذا العلم فقط، مستندا في ذلك إلى آفتي التحريف والتغيير اللتين تهددان اللغة في سلامتها وغايتها، عند غياب آلة النحو في الخطاب وفي عملية التخاطب، وهذا ما يؤكد أن "**النحو أعظم مستويات اللغة من حيث قضاياه ومسائله وتعدد فروعه، وفي جهله الإخلال بالتفاهم جملة، على حد تعبير ابن خلدون في مقدمته**"[2].

ليس في كلام المعترض خاصة فيما كان منه اختزالا لا فيما كان منه إنكارا، ما يدعو إلى الخلاف ويستوجب الرد والمرافعة؛ فتحريفُ الخطاب وتغييره نتيجةٌ حتمية لعدم تحقق المعاني في فهوم المتخاطبين على الوجه الذي يقود إلى التعبير عن الأغراض، والإفصاح عن المقاصد والأفكار من غير مشاكلة أو تداخل أو تشويش. فكلما كان المخاطِب عاجزا عن تصريف ما في ضميره ومنطقه من معان بشكل مبين ودقيق، بسبب جهله هذا العلم وتضييعه له، اتخذ لنفسه طرقا في التعبير مبتذلة، ومسالك في الإفهام مخلة، فما كان أن يفهم عنه بعد أن حرّف وغيّر وزاد وحذف إلا جاهلٌ بالنحو مثلُه.

2.4. منظور أبي حيان الأندلسي (ت 754هـ).

وهذا أبو حيان الأندلسي يشير في معرض حديثه عن جهود علماء المغرب والأندلس وبراعتهم في علم الكتاب (علم التفسير)، إلى مركزية علم النحو وأثره في بناء المعاني وبيانها، وتدقيق الفهوم وتحقيقها مقيِّدا هذا الأثر وهذه المركزية بالخطاب التفسيري، وجاعلا كتاب سيبويه ممثلا لعلم النحو، ونائبا منابه في بلوغ أقصى غايات الفهم والإدراك لكتاب الله عز وجل. يقول: "**فَالْكِتابُ هُوَ الْمِرْقاةُ إِلَى فَهْمِ الْكِتابِ، إِذْ هُوَ الْمُطَّلِعُ عَلَى عِلْمِ الْإِعْرابِ، وَالْمُبْدِيُّ مِنْ مَعالِمِهِ مَا دَرس، وَالْمُنْطِقُ مِنْ لِسانِهِ مَا خَرَس، وَالْمُحْيِي مِنْ رُفاتِهِ مَا رَمَس، والرّادُّ مِنْ نَظائِرِهِ مَا طَمَس، فَجَدِيرٌ لِمَنْ تاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى عِلْمِ التَّفْسِيرِ، وَتَرَقَّتْ إِلى التَّحْقِيقِ فِيهِ وَالتَّحْرِيرِ أَنْ يَعْتَكِفَ عَلى كِتابِ سِيبَوَيْهِ فَهُوَ فِي هَذا الْفَنِّ الْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ وَالْمُسْتَنَدُ فِي حَلِّ الْمُشْكِلاتِ إِلَيْهِ**"[3]، تستوقفنا في كلام أبي حيان أمور أربعة تدور جميعها في فلك التأكيد على الوظيفتين البيانية والإفهامية، اللتين يضطلع بها علم الإعراب في مجال التفسير، وهي كالآتي:

---

[1] تنبيه الألباب على فضل الإعراب، ص21-22.

[2] محمد القاضي، مقدمة محقق كتاب "شرح قطر الندى وبلّ الصدى"، لابن هشام الأنصاري، دار السلام، ط1، 2010م، ص15.

[3] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م، ص100-101.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

- يرى أبو حيان أنّ علمَ النحو ممثَّلا في كتاب سيبويه هو الدرجة الرفيعة في التفكير النحوي التي يُتبلّغ بها إلى فهم كتاب الله تعالى، وفي ذلك تشريف للنحو وإعلاء من قيمته مادام فهم كتاب الله معقودا عليه. وقد اشترك أبو حيان الأندلسي مع السهيلي في هذه النظرة الشريفة إلى علم النحو، فكلاهما عالمان جليلان ينتميان إلى الأفق المغربي الأندلسي؛

- يَعتبر أبو حيان كتاب سيبويه تجليا من تجليات علم الإعراب في أرقى مستوياته من جهة وظيفته في تتبع المعاني والمقاصد وتبيانها، ومنجزا شاملا ومستوعبا لجميع ما في لغة العرب من دقائقَ وشواردَ وجزئياتٍ وكليات؛ فسيبويه كما يشهد بذلك صاحب الموافقات "**وإن تكلم في النحو؛ فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به، حتى إنه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني**"[1].

- يؤكد أبو حيان أن تعاطي علم التفسير والمنافسة فيه لا يتأتى إلا بالعكوف على كتاب سيبويه باعتباره الكتاب الجامع المانع لعلم النحو، وهو المعين المعول عليه في تبيان المعاني وتقريبها، وفي توجيه الفهوم وتصويبها؛

- يكشف أبو حيان عن الكفاءة البيانية لهذا العلم كونه السندَ والوسيلةَ اللذين يوضحان ما أشكل على المفسر من كتاب الله، ويفتحان له منه ما استغلق، ويقربان ما بُعدَ عن فهمه وتفرق، فبهذا العلم ووفق هذه الكفاءة، انفرد رهط من علماء التفسير بإنعام النظر في كتاب الله، ف"**أثاروا كنوزه، وفكّوا رموزه، وقربوا قاصيه، وراضوا عاصيه وفتحوا مغلقه، وأوضحوا مشكله، وأنهجوا شعابه، وذللوا صعابه، وأبدوا معانيه في صورة التمثيل، وأبدعوه بالتركيب والتحليل**"[2].

2.5. منظور ابن هشام الأنصاري (ت 762هـ).

وأما ما كان من ابن هشام الأنصاري، في سياق إبراز مركزية علم الإعراب، والتأكيد على وظيفتيه البيانية والإفهامية، من حيث ارتباطه بالخطاب الشرعي على وجه الخصوص، حيث يقول: "**إن أَوْلى مَا تَقْتَرِحُهُ الْقَرائحُ، وَأَعْلى مَا تَجْنَحُ إلى تَحْصيلِهِ الْجَوانِحُ، مَا تَيَسَّرَ بِهِ فَهْمُ كِتابِ اللهِ، وَيَتَّضِحُ بِهِ مَعْنَى حَديثِ نَبِيِّهِ الْمُرْسَلِ، فَإِنَّهُما الْوَسيلَةُ إلى السَّعادَةِ الْأَبَديَّةِ، وَالذَّريعَةُ إلى تَحْصيلِ الْمَصالِحِ الدِّينيّةِ وَالدُّنْيَويَّةِ، وَأَصْلُ ذَلِكَ عِلْمُ الْإِعْرابِ، الْهادِي إلى**

[1] أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، ضبط وتقديم، وتعليق وتخريج: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1997، المجلد 5، ص54.

[2] البحر المحيط، ص100.

صَوْبِ الصَّوابِ"[1]، ففهم كتاب الله، وتوضيح معاني الحديث النبوي غايتان شريفتان، تشرئب إليهما النفوس والمطامح، وتتوق إلى تحصيلهما الهمم والقرائح.

الملاحظ أنّ ابنَ هشام يصدر في كلامه عن تفكير سببي محكم، ومنطق رياضي خفي، يحكمان نظرته إلى علم الإعراب؛ ذلك أن الظفر بالمصالح الدينية والدنيوية، وتحقيق السعادة الأبدية نتيجتان لا يدركهما النشء، ولا يحصلهما المرء إلا إذا كان له نصيب وافر من فهم كتاب الله، وحظ كبير من تبيُّن معنى حديث رسول الله، وليس يبلغ المرء هذا النصيب من الفهم وهذا الحظ من التبين إلا من طريق علم الإعراب، معنى ذلك أنه:

إذا كان:

علم الإعرابُ ← سببا في ← فهم القرآن الكريم + تبيُّن معنى الحديث النبوي.

وإذا كان:

تحقيقُ السعادة الأبدية + تحصيلُ المصالح الدينية والدنيوية ← نتيجتان لـ ← فهمُ القرآن + تبين معنى الحديث النبوي.

إذن فإنَّ:

علمَ الإعراب = السعادة الأبدية + المصالح الدينية والدنيوية.

من هنا تتضح مركزية هذا العلم وسلطتُه المعنوية عند ابن هشام، باعتبار ما يترتب عنه من نتائجَ ومصالحَ دينيةٍ ودنيويةٍ لم يكن للمتلقي أن يحصِّلها لو عُطلت في هذا العلم، قوته البيانية الكاشفة عن المعاني المستورة في ثنايا الخطاب، وما كان للناظر في الوحي أن يفهم عن الله مراده ومقاصده وأحكامه لو جهل وظيفة هذا العلم الإفهامية، وأثره في رفع الإبهام، وتوجيه الأفهام؛ فالوعي أولا، بموقع هذا العلم ومركزيته، والمعرفة ثانيا، بوظائفه وأثره في بيان المعاني وتحديدها، وتوجيه الفهوم وتحريرها شرطان ضروريان لصناعة الخطاب وتحليله، بل إنه "**أداة تأويلية [مهمة] في بناء معاني الخطاب**"[2]، وتفعيل هذه القدرة التأويلية لعلم النحو بغرض بناء المعاني في الخطاب، لا تكون له نتائج حسنة إلا بعد تفعيل الوظيفة الإفهامية، التي تساعد على تحقيق مستوى عالٍ في فهم الخطاب والسيطرة عليه في حدود ما تسمح به درجة التمكن من علم النحو والتفقه فيه.

[1] ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط2015، ج1، ص13.

[2] صناعة الخطاب؛ الأنساق العميقة للتأويلية العربية، كنوز المعرفة، ط1، 2015، ص57.

Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

بناء على ما تقدم من عرض لبعض الشواهد والأقوال المقتطفة في أغلبها، من خطب بعض المؤلفات والتصانيف التي تشهد بكفاءة مؤلفيها من أهل هذه الصناعة، واعتبارا للغاية من مقاربة هذه الأقوال وتحليلها، وتدقيق النظر فيها والتفاعل معها، أصبح من المجحف إنكار مركزية علم النحو/علم الإعراب، ومدى إسهامه في عمليتي تبيان المعاني وبنائها، وتحرير الفهوم وتوجيهها، لاسيما أن هناك من الشواهد المعروضة ما يتضمن الإشارة الصريحة إلى هاتين الوظيفتين البيانية والإفهامية، وإنْ كانتا لا تردان عموما، إلا متعلقتين بالخطاب الشرعي.

فمن الأقوال والشواهد المعروضة في هذا الشق الخاص بأثر علم النحو ومكانته في صناعة الخطاب التفسيري وتحليله، ما يمكن تصنيفه في خانة النصوص المؤكدة على الوظيفة البيانية البنائية، ومنها ما يمكن تصنيفه في دائرة النصوص المحيلة على الوظيفة الإفهامية التوجيهية، ومن أقوال العلماء ما يجمع بين الوظائف جميعا.

فإذا كان علم النحو مع الجرجاني قد أخذ منعطفا مهما على مستوى التصور والوظيفة، وانفتحت له آفاق واسعة في علاقته بالمعنى نظريا؛ إذ أمسى مفتاحا لكل ما استغلق عن المتلقي من المعاني الثاوية خلف الألفاظ في تأليفها ونظمها، وأداةً لاستخراج ما يتضمنه الخطاب من مقاصدَ وأغراضٍ مع ما يترتب عن هذا الاستخراج من مزية التحرير، وتجنب اللَّبس التي يستفيد منها فهم المتلقي، فإن مع الزمخشري ستتضح القيمة الإجرائية لعلم النحو بشكل جلي من خلال اعتباره شرطا أساسا لتعاطي التفسير على الوجه الذي يصح فيه الاجتهاد ويقبل، ولعل موقف الزمخشري هذا الموقف الجليل من النحو نابعٌ من رسوخ الوعي بأهمية هذا العلم ومركزيته القصوى فيما يخص النظر في كتاب الله، ومستخلَصٌ من صميم خبرته، وطول باعه في صناعة التفسير.

وتظل غاية الفهم والإفهام أو ما يندرج ضمن الوظيفتين البيانية الإفهامية، من أهم ما يضطلع به علم النحو، ويسعى إليه المتوسلون به في مجالات وصناعات أُخَرَ. فحسن الفهم والإفهام، وبلوغ الغرض في الكلام هما بالنسبة لابن السراج الشنتريني، ثمرتا حسن الاستفادة من علم النحو بعد التمكن منه وبلوغ درجة الإحسان فيه. وباقتطاف هاتين الثمرتين وتحصيلهما يستطيع صانع الخطاب أو منتجه رغم اختلاف أشكاله ومستوياته وسياقاته، أن يعفي المتلقي ومحلل الخطاب على حد سواء، من كد التفهم، ومن التيه في هوامش اللَّبس والتداخل والاحتمال والتوهم.

ويَعُدُّ أبو حيان الأندلسي كتابَ سيبويه التجلي الأرقى والمعتبرَ لعلم النحو في شموليته وفي دقائقه وجلائله، مقيدا بذلك ما ورد عن الزمخشري بإطلاق، حول أهمية النحو ومكانته المؤسِّسة لعلم التفسير، والمحددة لقيمة أي اجتهاد؛ فأبو حيان يرى أن النظر في كتاب الله، وسلوك طريق الاجتهاد فيه يستلزم بالضرورة الإحاطة بمسائل "الكتاب" النحوية متعالقة مع بعض الأبواب والفنون الأخرى، التي تشكل مجتمعة تفكيرا نحويا عربيا متكاملا ونموذجيا هو الأصل والمرجع في أي اجتهاد، سواء تعلق الأمر بخطاب التفسير؛ ذلك لأن "**تحليل خطاب التفسير العربي الإسلامي ينبغي أن يتم من**

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أفق معرفي وتحليلي يراعي خصوصيات هذا الخطاب، ويراعي خصوصيات النص القرآني الذي هو موضوعه"[1]، أو تعلق الأمر بالخطاب على وجه الشمول والاستغراق.

وما تزال النظرةُ المؤكدة على مركزية علم النحو وفاعليته في تَقَفُّرِ أثر المعاني ورفع منارتها، وفي تحرير الفهوم وتقويم مساراتها مقرونةً بالخطاب الشرعي ومقصورة عليه عند ابن هشام الأنصاري، قصر اقتضته شروط تاريخية وعقدية وموضوعية، واستلزمته نموذجية هذا الخطاب ومكانته الشريفة والراسخة في نفوس الخاصة والعامة وفي وعيهما الجمعي؛ فالاقتدار على اختبار قوة النحو وكفاءته، وإثبات مركزيته ووظيفتيه البيانية والإفهامية على أرض الخطاب الشرعي، يعطي لهذا العلم صلاحية، وسلطة، واستطالة تمكنه من مقاربة جميع أنواع الخطابات، على اعتبار أن الخطاب الشرعي ذو خصوصية، ومتفرد عن سائر أنواع الخطابات الأخرى.

ولأجل ذلك جعل ابنُ هشام علمَ الإعراب سببا غيرَ مباشر لتحقيق السعادة الأبدية المتمثلة في بلوغ ما يطمح إليه الإنسان ويرجوه في دينه ودنياه، وذلك من طريق تحرير الفهم وتوجيهه إلى ما يجوز معه فسر القرآن الكريم وتأويله، مع استحضار ما فيه من إعجاز بمفهومه العام، وكذا تبيان الأحاديث النبوية الشريفة وتقريب معانيها المتوارية في بلاغتها وبعد غورها. إنّ تيسير فهم كتاب الله من منطلق نحوي عند ابن هشام، هو خطوة جليلة أولى لا غنى عنها في طريق الوصول إلى مراد الله تعالى، وفسر آياته لأجل الظفر بما تتضمنه من معانٍ وأسرار، وكذلك الأمر بالنسبة للحديث النبوي الشريف؛ فإقرار ابن هشام بأن اعتماد علم الإعراب مرتكزا ومنطلقا لتوضيح معاني الحديث يدخل في باب أولى الأولويات عنده، ولا ينفصل ألبتة، عن هدف تيسير فهم كتاب الله.

على سبيل الختم:

لقد أبانت هذه الثلة المنتخبة من العلماء الأجلاء رغم تباعد الشقة بينهم، واختلاف بيئاتهم ومذاهبهم، عن نظرة عميقة ومنصِفة في إبراز مكانة هذا العلم ومركزيته، وهي النظرة نفسُها عند أغلب النحاة العرب والمسلمين وإن لم يعبروا عنها بشكل صريح، في خطب مصنفاتهم ومظان مؤلفاتهم. والمتتبع لأقوال هؤلاء العلماء لا شك سيلاحظ أنّ ثمة خيطا ناظما يربط بين آرائهم ومنظوراتهم، وأن ثمة نسقيةً في تفكيرهم ونظرتهم لعلم النحو، سواء من حيث الموقعُ المركزي الذي يحتله في وعيهم وثقافتهم وفي اجتهاداتهم، أو من حيث الوظيفةُ التي يضطلع بها باعتباره الوسيلةَ المثلى للتنقيب عن المعاني وتبيانها، والأداةَ الضامنة لضبط الفهوم وتحريرها.

[1] نفسه، ص45.

Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وما كان لهذه الآراء وهذه الرؤى والمواقف أن تسير في خط موحد، وأن تصب في مجرى واحد، وما كان لهذه النسقية أن تميز تفكير هؤلاء العلماء لولا أن المنطلقين المعرفي والحضاري واحدٌ، وأن الوعي بالقيمة العلمية والمحدِّدة لعلم النحو في علاقته بالخطاب الشرعي تحديدا، مترسخٌ ومشتركٌ.

وبعد أن عرضنا في هذا المقال، لبعض آراء هؤلاء العلماء، وحاولنا رصد نظرتهم تجاه هذا العلم على مستوى وظيفتيه البيانية والإفهامية التحريرية، انتهينا إلى مجموعة من الخلاصات المهمة نوردها على الشكل الآتي:

- التأكيدُ على أنّ علمَ النحو هو بمثابة مفتاحٍ لكل ما استغلق من المعاني الثاوية خلف الألفاظ في تأليفها ونظمها، وأداةٍ لاستخراج ما يتضمنه الخطاب من مقاصدَ وأغراضٍ، مع ما يترتب على هذا الاستخراج من مزية التحرير والخروج من دوائر اللَّبس والغموض التي يستفيد منها فهم المتلقي حينما ينظر في الخطاب بعين ناقدة، محللة، وبانية؛

- إنزالُ هذا العلم منزلة الشرط الأساس، الذي لا مفر من توفره في مَن أراد تعاطي علم التفسير على الوجه الذي يصير معه الاجتهاد معتبرا ومقبولا، وهذا دليل قاطع على الوعي بأهمية هذا العلم ومركزيته القصوى فيما يخص النظر في كتاب الله، وحديث نبيه المصطفى؛

- الاتفاقُ على أن غاية الفهم والإفهام من أهم ما يضطلع به علم النحو، ويسعى إليه المتوسلون به في مجالات وصناعات أخرَ؛ ذلك لأن حسن الفهم والإفهام، وبلوغ الغرض في الكلام نتيجتان جليلتان لا تدركان إلا بحسن الاستفادة من هذا العلم بعد الاستقلال به، وبلوغ درجة الإحسان فيه؛

- النظرُ إلى كتاب سيبويه باعتباره الوجهَ الأمثل والمعتبرَ لعلم النحو في كلياته وجزئياته، والاقتناع بأنّ إنعام النظر في كتاب الله، وسلوك طريق الاجتهاد فيه يستلزم بالضرورة الإحاطة بمسائل هذاك الكتاب النحوية متعالقةً مع بعض الأبواب والفنون الأخرى، التي تشكل مجتمعة، تفكيرا نحويا عربيا متكاملا ونموذجيا هو الأصل والمرجع في أي اجتهاد؛

- التأكيدُ على مركزية علم النحو وقدرته على تبيان المعاني وتوجيهها، وعلى تحرير الفهوم وتحديدها، وتبرز هذه المركزية وهذه القدرة بشكل خاص، عندما يتعلق الأمر بالخطاب الشرعي.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

لائحة المصادر والمراجع:

1 – ابن السراج الشنتريني، ط1،1995م، تنبيه الألباب على فضائل الإعراب، دار عمار؛

2 – أبو حيان الأندلسي، ط1،1993م، البحر المحيط، دراسة، دار الكتب العلمية، بيروت؛

3 – أبو سعيد علي بن مسعود الفرخان، المستوفى (ب. د)؛

4 – أبو علي النحوي، ط2، 1982، المسائل العسكريات في النحو العربي، جامعة بغداد، بغداد؛

5 – الأشموني، ط1955م، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الكتاب العربي، بيروت؛

6 – الجاحظ، ط7، 1998م، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ؛

7 – الزمخشري، ط1، 2004م، المفصل في علم العربية، دار عمان؛

8 – جلال الدين السيوطي، ط2011، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة العصرية، بيروت؛

9 – عبد القاهر الجرجاني، ط3، 1992، دلائل الإعجاز، شركة القدس للنشر والتوزيع؛

10 – محمد القاضي، ط1، 2010م، مقدمة محقق كتاب "شرح قطر الندى وبلّ الصدى"، لابن هشام الأنصاري، دار السلام، مصر؛

11 – محمد بازي، ط1، 2015، صناعة الخطاب؛ الأنساق العميقة للتأويلية العربية، كنوز المعرفة،

12 – أبو إسحاق الشاطبي، ط1، 1997، الموافقات، دار ابن عفان؛

13 – ابن هشام الأنصاري، ط2015، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المكتبة العصرية، بيروت.

Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)